مؤسسة دار
رسالة البيان
للنشر و التوزيع

من وحي .. السقم

(مجموعة قصصيّة)

د.أحمد بن عبد الرحمن العمر

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الثانية

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

ح أحمد بن عبد الرحمن العمر، ١٤٢٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العمر، أحمد بن عبد الرحمن

من وحي السقم: قصص واقعية. / أحمد بن عبد الرحمن العمر.

الرياض، ١٤٢٤هـ.

ص ٩١؛ ١٤ × ٢٠سم

ردمك: ٧ - ٢٣٢ - ١٠ - ٩٩٦٠

١ - الوعظ والإرشاد - قصص أ. العنوان

ديوي ٢١٣ ١٤٢٤/٢٣٨٦

رقم الإيداع: ١٤٢٤/٢٣٨٦

ردمك: ٧ - ٢٣٢ - ١٠ - ٩٩٦٠

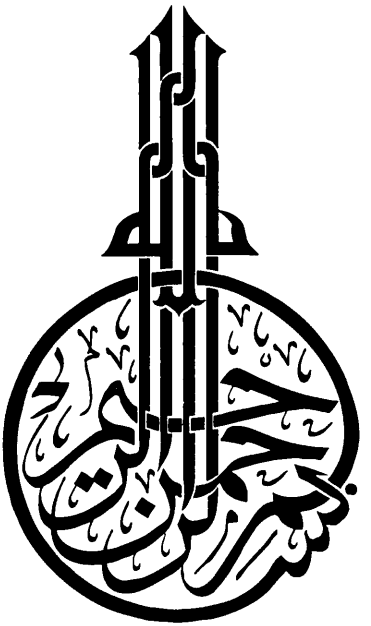

الإهـــداء

إلى كل إنسان

المقدمة

الحمد لله ذي الرحمة..

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة.. وبعد:

فإن للإمراض والأسقام وحيَاً يُطهر النفوس..

كما أنَّ لها ألماً يُوجع الأبدان.

وبين يديك بعض تلك الآلام وما أوحتْه من تطهير وتزكية دونته من صميم الواقع لا من نسج الخيال.

أتمنى أن يزدان بريدي بملاحظاتكم، وأن أرى في صحائفي دعاءكم بظهر الغيب..

يا من وسعت رحمته كل شئ.. إرحمنا.

أحمد بن عبد الرحمن العمر

دكتوراه في طب الأطفال

ص.ب ١٥١١٦٧ الرياض ١١٧٧٧

dr.ahmad@gmail.com

القصة (١) عندما ييأس اليأس

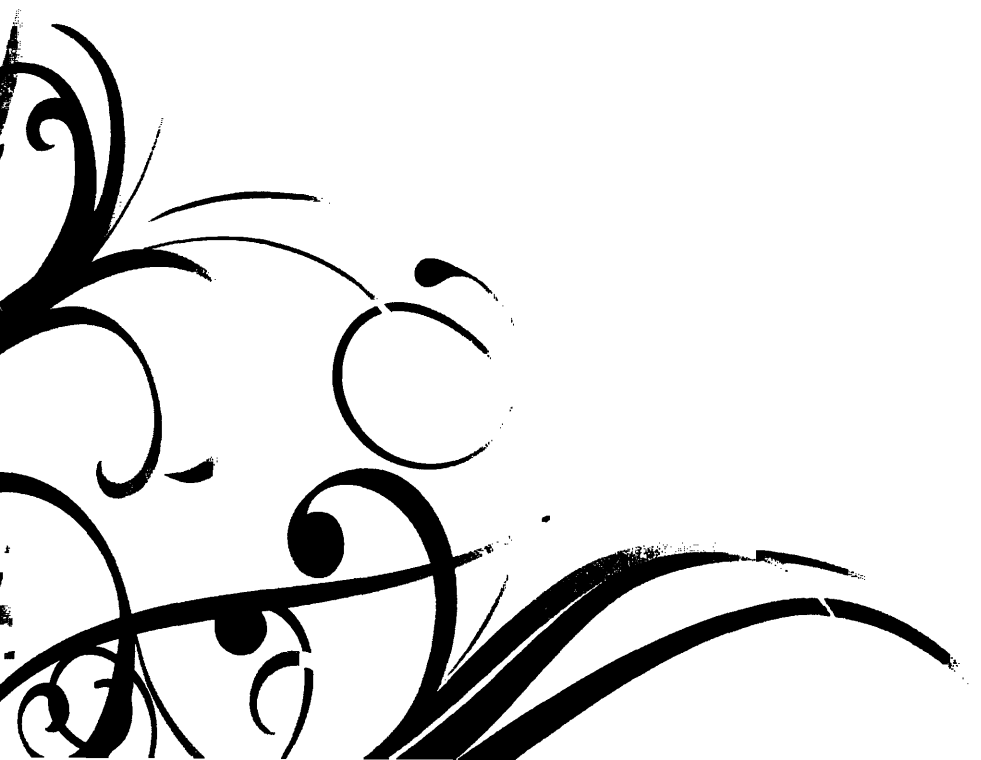

عندما ييأس اليأس

في أواسط أفريقيا . . ومن بين أدغالها . . كانت ضحكات عبدالله صدىً لبراءته . . من حقه أن يلعب . . فهو طفل كباقي أطفال العالم . . لم يكن يعبأ بنظرات العالم المشفق على فقره . . وجهل أهله . . وكانت أمه التي يراها أجمل امرأة في الكون . . وأعظم أم في العالم، ومن حقه أن يراها كذلك، كانت تبادله أهازيج قصيدة الحب الصادق . . . حبها له . . وحبه لها .

* * *

دارت الأيام دورتها الطبيعية ، وكل شيء كما هو ، عبدالله يكبر . . والأم الرؤوم ترمقه بعين الأمل ومقلة الإستبشار . . . حتى بدأ فجر يوم موعود . . . بدأت معه رحلة عبدالله وأمه في قطار رمادي . . امتطى سكة سوداء غليظة كغلظة حديدها . . .

مازال عبدالله يافعاً . . يركض . . . يلعب . . يتكلم بنصف الكلمات . . نام ليلة وقد ظهرت عليه بعض أعراض الإعياء والتعب، جسمه بدا دافئاً . . ورغبته في الطعام والشراب أفَلَتْ «لعلها كسابقاتها من نزلات الأنفلونزا والبرد» هذا ما رددته الأم على وجل . . ، ومع بزوغ الفجر . .

زاد إعياؤه وتكوم بجسمه الكليل في نصف فراشه . . لكن الذي أثار قلق الأم هو عدم استجابته لندائها . . بدأ يفقد وعيه شيئاً فشيئاً . . ثم اهتز جسمه هزات عنيفة، وقد شخصت عيناه . . وتصلبت أطرافه . . لقد كان عبدالله يتشنج . . .

* * *

ركضت الأم المكلومة . . شاهقة النفس . . مرتعدة الفرائص . . ممتقعة الوجه . . معقودة اللسان . . وهي تحمل عبدالله بين يديها . . تساعدها جارتها . . التي استجابت بفطرتها . . لصوت أم عبدالله وهي تبكي . . «عبدالله يموت . . » لم يكن المستشفى الذي أقامته إحدى المؤسسات بعيداً، ركضت أم عبدالله المسافة كلها لا تلوي على شيء . . سوى إنقاذ مهجتها وفلذة كبدها . . دلفت من الباب . . يتقدمها آهات تطلب النجدة . . ويشيعها دعوات من جارتها . . بأن يحفظ الله عبد الله . .

* * *

مكث عبدالله أياماً تحت العلاج المركز . . بصدق ووضوح أخبر الأطباء أمه بحقيقة الأمر « . . عبدالله مصاب بالدرن من درجة متأخرة . . » الدرن الذي أصاب عبدالله كان غائراً في أعماقه، في جهازه العصبي في مخه وسائله الشوكي . . الأمر

الذي سبب غيبوبته وتشنجاته، «.. العلاج طويل المدى.. هذا إذا بقي حياً.. وأمّا أثر الدرن على جهازه العصبي فلا يمكن التنبؤ به.. إلا أن وضعه الحالي يشير إلى وجود تلفيات خطيرة في المخ..».. هذا ما قاله الأطباء لأم عبدالله.. لقد كان ما قالوه قليلاً في عدد كلماته... قصيراً في ما استغرقه من زمن.. لكنه في كيان أم عبدالله شيءٌ آخر.. كلمات الأطباء.. كانت صاعقة صمت أذنيها لتصل لسعتها المُرة إلى كل خلية في جسمها.. كانت العبارات رصاصات ملتهبة تستقر في قلبها الجريح... الذي بات ينزف دماء الأرض كلها.. ولا تسعفه دماء بني الإنسان كلهم.. لم تستطع الحديث، وأنَّى لحروف مكلومة.. متعثرة في وديان الحرقة والألم أن تظهر... كل ما قدرت عليه هو أن غصَّت بكلماتها.. فتحدثت عيناها بدموع ليست أقلّ حرارة من كلمات الأطباء.. ورفعت سبابتها صوب السماء.. لتخرق سقف الغرفة وتتجاوز كل الحجب... فتستقر فوق السحب..

❊ ❊ ❊

ظلت أم عبدالله تساهر عبدالله في جُزءٍ من وقتها في المستشفى.. وتسامر أحزانها في أجزاء، وعليها واجبات أخرى.. بقية الأطفال في المنزل.. لا أم لهم سواها.. وتأبى أن يكون لهم أمٌّ غيرها.. وحال أم عبدالله مع عبدالله وبقية

أطفالها كحال أية أمٍّ . . كلهم سواسية في قدر الحب . . . كلهم من جسدها منزلة الأعضاء . . تدور عليهم الأدوار حسب حالهم . . ففيهم ساعدها حين يخدمها . . ومنهم روحها حين يحتاجها . . وأما عبدالله فقد صار في مرضه قلبها النابض . . ترى حياتها في حياته ، وأملها في شفائه دم يجري في عروقها . . كل دقة لقلبها تنادي عبدالله . . وكل نبضة في عروقها دعوة له وأمل في عافيته . . وحين تعود أم عبدالله لمنزلها ، تعود بلا قلب . . . خاوية من معاني الحياة ، وتعود بلا نبض . . شاحبة الوجه ، صفراء اللون لتمارس واجباتها الأخرى دون قلب ودون نبض . . تركتهما مع عبدالله . .

❊ ❊ ❊

خرج عبدالله من قسم العناية المركزة إلى الجناح العام . . كأنما هو كائنٌ آخر . . لا يسمع . . لا يرى . . لا يتحرك . . لا يقوى على الأكل والشرب . . . أنامله منطوية . . ساقاه متصلبتان كأنما قُدّت من حجر . .

وقفت أم عبدالله على رأسه خائرة القوى . . ترفع على كاهلها أحزانها التي جددتها كلمات الأطباء . . واصفة عمق الإصابة وحجم التلف في المخ . . والأكثر ألمًا . . أن خلايا المخ لا تتجدد حين تتلف . . وبالتالي فلا أمل في رجوع حالته إلى وضعها الطبيعي . . عند هذا الحد من كلماتهم . . توقفت

أم عبدالله عن الحياة معهم.. وراحت بخيالها تعيش حياة أخرى.. كانت أمام الأطباء.. تمثالاً.. كانت صورة في ألبوم الأسى.. لم تشعر بما يقولون في الشطر الثاني من حديثهم.. الذي لم يعد كونه محاولة يائسة في تخفيف مصابها..

«ستكون حالته مستقرة على هذا النحو.. جرثومة الدرن تزول.. ولا نتوقع مزيداً من الإصابة.. ستتمكنين من رعايته.. كثير من الأطفال يعيشون في مثل وضعه.. ونجحت أمهاتهم في تخفيف معاناتهم.. ونحن واثقون انك ستنجحين مثلهن». أفاقت أم عبدالله من جديد.. على صوت الشطر الثالث من حديثهم.. لم يكن أقلّ مرارة «.. لم يعد عبدالله يحتاج إلى رعاية المستشفى.. كل ما يحتاجه.. هو رعايتك له في المنزل.. استمري في إعطائه الدواء عبر الأنبوب كما تعطينه الشراب والأكل المهروس.. تعالي إلى المستشفى بين حين وآخر.. لنطمئن على حالة عبدالله ونغير الأنبوب.. نحن متأكدون من حرصك عليه ومتابعة مواعيده..» تركها الأطباء وانصرفوا.. وهم يدركون أنها ستحتاج بضعة أيام لتتأقلم مع الوضع الجديد.. ومن ثم تأخذه وتنصرف...

❊ ❊ ❊

خرج الأطباء من الغرفة ليدخلها مكانهم فارسُ اليأس يجتر جنده.. كان مُكْفهر الوجه.. أسود الملامح.. غليظ

الصوت.. مُكشراً عن أنياب جائعة.. يمتطي وحشاً مُرعباً تكونت أعضاؤه من كلمات الأطباء ومكتوب على ناصيته «لا شفاءٌ».. وعلى حربة سوداء في يده «تلف المخ»، لم يكن جنوده أناساً مصطفين خلفه.. بل أفاعي عظيمة... وعقارب سود مخيفة، صوت زحفها داخل الغرفة مرعب، يزيده رعبا رؤوسها التي امتلأت سماً زعافاً انتشرت في كل شبر من الغرفة حتى حجبت النور الدالف من كوّة صغيرة.. أرض الغرفة، جدرانها، حتى سقفها، بل على سرير ابنها وحول موضع قدميها عقارب وأفاعي، سنت الأولى شوكها والأخرى أنيابها.. وهي تعزف لحن اليأس القاتل..

أطفال مثل طفلك ❊ ❊ الإعاقة.. ثم الموت

رفع الفارس حربته.. وسددها إلى قلب أم عبدالله.. وصاح في جنده. مزقي كيانها..

اختفت أم عبدالله.. لم تظهر صباح اليوم التالي كعادتها لتسأل الأطباء عن حالته.. وتمنيّ نفسها بشفائه..

صباح يوم آخر.. وثالث.. وعاشر.. لا يراها الأطباء، يكتفي الأطباء بسؤال الممرضات عنه.. إذ لا جديد.. كومة لحم قد تخشبت..

ويكتفون برعاية الممرضات له.. إذ لا يحتاج أكثر من

ذلك . . شراب ودواء . . وتنظيف . . ويكتفون بالزمن . . تنسى معه المأساة . .

بعد ثلاثة أسابيع من اختفاء أم عبدالله . . وحين يدخل د . هندركسي[1] بعد عطلة نهاية الأسبوع . . . تستقبله إحدى الممرضات على عجل . . وقد علتها علامات

الدهشة والاستغراب . . وتباغته قبل إلقاء التحية . . .

تعال . . انظر إلى عبدالله . . ما الجديد انه لم يتغير . . .

انظر إلى يديه . . نعم يديه . . انه يحرك أصابعه . .

شخص الطبيب مكانه . . وهو ينظر إلى أصابع عبدالله . . الجائعة . . المتثنية . . المتصلبة . . النحيلة . . من وطأة المرض . . نعم . . عبدالله يحرك أصابعه

خرج الطبيب من الغرفة ساهم الوجه . . وعلى محياه . . علامة استفهام كبرى . . زادت دهشة الطبيب أكثر بعد يومين ، حين أخبرته الممرضة أن عبدالله يحرك يديه . . وأن أصابعه قد انطلقت من تصلبها . .

الأطباء . . الممرضات . . لا يعرفون ماذا يجري . . عبدالله

---

(١) الدكتور هندركسي هو أستاذ الأمراض الاستوائية بجامعة ليفربول للأمراض الاستوائية وقد أشرف على علاج عبد الله ، وقصّ علينا خبره أثناء دراستي لدبلوم الأطفال عام ١٤١٦هـ . كتبتها بتصرف .

بدأ يحرك أصابع قدميه، وبعد أيام لانت ساقاه المتخشبتان.. وصار يحركهما.!! نعم يحركهما.. لا احد يفسر ما يحدث.. استسلم الجميع للواقع الذي فرض نفسه على العلم والنظريات والتجارب. الحقيقة المدوية هي أن عبدالله بدأ يتحسن في جهازه العصبي.. لم تتوقف فصول المعجزة ومفاجأتها.. استمرت عدة أسابيع وحالة عبدالله في تحسن مطرد.. وأم عبدالله ما زالت مختفية..

* * *

ذات يوم.. هتفت الممرضة بالأطباء.. جاءت أم عبدالله.. هرع الأطباء.. تشيعهم الممرضات.. لرؤية أم عبدالله.. والتسابق في زف البشارة... إلا أن الجُمل تهاوت.. ووقف الجميع في صمت ثقيل أمام هيبة أم عبدالله.. كانت في وقفتها كالطود الشامخ وقد بزغ من ناظريها نور أحرق كل الكلمات.. فلم يملك الجميع إلا الانتظار.. انتظار ما تقول هي:

«السلام على من اتبع الهدى.. جئت لآخذ عبدالله ولدي.. وشكراً على رعايتكم...».

تعجز الكلمات أن تصف رحيلهما من المستشفى.. صدق أو لا تصدق.. خرجت به ليس محمولاً بين يديها كما جاءت... بل يمشي.. رحلت به.. لا تمسك يديه لتدله

الطريق . . بل يمسك يديها . . لم تفتح له باب المستشفى ليخرج بل فتح لها هو . . لم تطلب منه أن يسمعها أو أن يكلمها . . بل بادرها بصوته الطريب . . «أمي . . متى نصل البيت . . . » .

تلتفت الممرضات إلى بعضهن . . بوجوه ساهمة . . لمعت عليها قطرات . . ذرفتها عيونهن . . إنها اللغة الوحيدة . . التي تتحدث في هذا الموقف . . ويفهمها كل البشر . .

* * *

قال الدكتور هندركسي . . . .

عقدنا اجتماعاً مطولاً . . دعونا فيه جميع الأطباء . . ومتخصصى علم الأمراض والأنسجة في المدينة لمحاولة تفسير حالته . . كيف تحسن وقد أتى المرض على جزء كبير من مخه فأتلفه . . ؟!

وبعد مداولة وطول نقاش، خرجنا برأي واحد . . لا ندري، لا نستطيع تفسير ما حدث . . .

وبعد تفرقنا، استوقفني أحد الأطباء المساعدين لي ويعمل في فترات مسائية وليلية بالمستشفى قائلاً . . هل تريد السّر في تحسن عبدالله؟ أجبته نعم وعلى عجل أرجوك قال . . أتذكُر حين تحدثنا مع أم عبدالله عن حالته ونصحناها باصطحابه للمنزل، ثم اختفت بعدها . . أجبته . . نعم . . استطرد . . إن

أم عبدالله لم تختفِ.. بل صارت تأتي كل ليلة قبل الفجر ومعها اثنتان من صاحباتها.. يقفن بجانب عبدالله.. ثم يرفعن اكفهن ويدعون دعاءً حاراً متبتلات يسألن الرب أن يشفيه حتى يطلع الفجر ثم ينصرفن... يفعلان ذلك كل ليلة طوال الأسابيع التي اختفت فيها عن أعيننا حتى جاءت لتأخذه سليماً معافى.. كأن لم يصب بأذى..

عندها ختم الدكتور هندركسي قصته مع عبدالله وهو يقول لنا: «.. استفيدوا من هذه القصة..».

* * *

لقد كانت معركة ضروس خاضتها أم عبدالله مع اليأس.. حين لجلجت جحافل اليأس في غرفة أم عبد الله معلنة حصارها الأسود على قلبها المكلوم وجسدها العليل.. وقد انقطعت بها السبل.. فلا دواء ينفع.. ولا طبيب يشفي... ولا قريب ينجد.. وحين تلتفت يمنة ويسرة فلا ترى إلا عقارب اليأس تلدغ الأمل، وثعابينه تسمم بريق التفاؤل.. وقد جثم وحشه المرعب على صدرها وغرس فارسه الكالح حربته في حلقها فحبس صوتها فما عاد يسمعه من أهل الأرض أحد.. عندها أدركت أن الأرض بمن فيها قد تخلّت عنها فريسة لليأس.. فرفعت سبابتها إلى السماء وقد تفجرت في قلبها ينابيع الفطرة مرتلةً: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا

دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، إنه (سبحانه) في علاه أقرب إلى عبد الله من أمه وأقرب إليها من عبد الله، ودوّى في صدرها جواب رباني لبحثها عن الملجأ... ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢]... وصهلت في وجدانها خيول اليقين... ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩] نعم.. ان الله قريب...

إن الله مجيب..

إن الله قادر على شفاء الخلايا التالفة فهو الذي أنشأها من العدم..

من يؤوي المكلومين سواه..!

من يجيب المضطرين غيره...!

من يخلصها من براثن اليأس إلا أجنحة رحمته..!

من يرَقي لدغات العقارب وغدرات الثعابين إلا شعاع وحيه..!

من يزيح ظلمة الخوف الموحشة إلا نور الإيمان به..!

* * *

استجمعت أم عبدالله قواها ونزعت حربة اليأس من حلقها، وقد همرت دموع الاستغاثة بالله... ورددت:

«لا إله إلا أنت سبحانك . . إني كنت من الظالمين . .»، واستلت سيف الدعاء الصادق . . من غمد اليقين بالإجابة . . ووقفت في الثلث الأخير من الليل . . حين لا يراها الناس . . إذ لا حاجة لها بالناس . . . وحين ينزل الرب سبحانه . . فحاجتها عنده . . وينادي . . . هل من سائل فأعطيه . . فتنادي في السماء . . ويسمعها من في السماء . . . تناجي رب السماء

عندها تفتحت أبواب السماء . . وبزغ منها نور بدد ظلام المكان . . وأتي على جنود اليأس فأحرقها . . . وتهدهد الوحش أمام صهيل اليقين . . حينها ترجّل فارس اليأس مستسلمًا ورفع راية بيضاء قد كتب عليها . . .

«**يأست منك . . .**»

❊ ❊ ❊

تَمَّتْ

القصة (٢) (موسى) الرحمة

(موسى) الرحمة

دَخَلَت عليَّ العيادة بخُطىً ثقيلة، وعلى ساعدها الأيمن طفلٌ معصوب الرأس، لكن الذي يلفت النظر أكثر ملامح وجهه المستدير، ملامح متلازمة داون[٢]، يسميه بعض الناس بالطفل المنغولي

وجدَّته التي دخلت به تناديه.. «موسى»..

سألتها عن قصته وسبب العصابة على رأسه، فسبقت كلماتها دمعةٌ حارة مدادها حرقةٌ وألم..

---

(٢) كلمة متلازمة تعني مجموعة من العلامات والأعراض تكون بمجموعها وصفاً لحالة مرضية معينة، وداون هو أول من وصف مجموعة العلامات والأعراض التي تظهر على الأطفال المصابين بهذه المتلازمة، ومنها ارتخاء العضلات، كون الوجه مسطحاً، ميلان شق العينين باتجاه أسفل الأنف، انضغاط الجانب العلوي من الأنف بمستوى الوجه، بروز اللسان، كون اليد مفلطحة وعريضة والأصابع قصيرة ووجود خط عرضي واحد في كف اليد وملامح أخرى. نسبة الإصابة بمتلازمة داون واحد من كل (٨٠٠) ثمان مئة مولود تقريباً، وأطفال متلازمة داون أكثر عرضة من غيرهم لتشوهات القلب والتخلف العقلي. التسمية بالطفل المنغولي ليست علمية والأولى تحاشيها وسببها تشابه بعض ملامح متلازمة داون مع الجنس المنغولي. يتميز أطفال متلازمة داون بروح الصداقة ومحبتهم وتفاعلهم المتميز مع اللعب والابتسامة حتى من الأغراب. سبب المتلازمة هو خلل في عدد الكروموسومات (زيادة) أثناء بدايات تكون الجنين بإذن الله.

كانت البداية مع ولدها.. شاب في الريعان، غلبت عليه نشوة الشباب، وظهرت على سلوكياته بوارق المراهقة.. كثرة لعب، ضياع للأوقات، إهمال للفرائض، وانغماس في الملهيات، وكسل في خدمة الأبوين ورعاية مصالحهما..

توالت نداءات الأم وتعالت صيحاتها.. «انتبه يا بني، كن على حذر يا ولدي..» لكن جدار المراهقة كان كفيلاً بصدها..

وبصوت حنون، يحدوه دفء الأمومة تتوسل إليه.. «دعني أبحث لك عن بنت الحلال...، لا تحرمني من حمل ولدك.. ومداعبة ابنتك..» وبعد إلحاح، وكثرة ترداد.. استجاب لطلبها.

* * *

كانت أيامه الأولى بعد الزواج «شهر عسل»، سهرات تملأها ضحكات، اللهو واللعب وشَّحَا أيام الزوجين ولياليهما التي توالت وتصرمت.. حتى دخل الولد على أمه بالخبر السار.. «أمي أبشري.. زوجتي حامل..!!».

بعد تسعة أشهر حانت ساعة الصفر..، الزوجة تقاسي الآم المخاض، والزوج علت محياه مشاعر القلق.. وتمر اللحظات.. وولد موسى لدينا بمستشفى الولادة

والأطفال . .

استدعت القابلة الطبيب لمعاينته، فملامحه غير طبيعية . . جثى الأب على ركبتيه وقد هزته صدمة الخبر، كلمات الطبيب لم تفتقد نبرة الأمل ونظرة التفاؤل « . . . الولد بخير، وصحته جيدة، كثير من الأطفال يولدون بنفس مشكلته - متلازمة داون - وعاشوا مع أهلهم حياة شبه طبيعية . . . » لكن الحقيقة المرّة كانت زلزالاً هزّ كيان الأبوين، وصخرة سوداء ثقيلة تحطمت على جنباتها أحلامهما الوردية التي كانا يتجاذبان أطراف الحديث حولها في الشهر الأخير من الحمل . . .

كيف سيأكل ويشرب؟، هل سينام كغيره؟، كيف ستكون نظرة الناس لنا وله؟، هل نحن السبب . . ؟ هل كل أولادنا القادمين سيكونون مثله . . أم بعضهم . . وكم نسبة تكرر الحالة؟ هل سيكبر؟ وإذا كبر هل سيتزوج ويكون قادراً على الإنجاب؟ . . .

تلك لم تكن مجرد أسئلة عابرة، بل أعاصير رهيبة تعصف بأذهان الأبوين، وهموم ثقيلة يسامرانها بدل النوم . . ، لكن السؤال الذي كان الأب يكرره بإلحاح على الأطباء في كل مرة يزور المستشفى . . «هل سيعيش موسى؟ وإذا عاش فلمدة كم»؟!

تبحر الأم في موج من الهواجس والآلام وهي ترمق عيني موسى المشقوقتين، وحين تفرد أصابعه القصيرة يعترضها خط وحيد في وسط كفه كأنما هو حاجز أحمر غيَّر مسار أحلامها إلى سكة المستقبل القاتم، وما حاول الأبوان كتمه من الحرقة والألم فضحته الدموع . .

* * *

وفي زحمة الأفكار، ومن بين ظلمة الهواجس . . بزغ نورٌ رباني، حرَّكَ مكامن الفطرة النقية . . .

الله الذي خلقنا وخلق موسى .

الله الذي قدَّره في هذه الصورة .

أو ليس الله بأرحم بعباده من أمهاتهم .

أو ليس الله بأرحم بموسى منّا .

أو ليس الله بسامع النجوى وعالم السرائر .

أليس الله بمغيث الملهوفين ومجيب المضطرين .

أليس الله بملاذ الفارين وملجأ الخائفين .

يآه . . كم كنا بعيدين عن الله . . ويّ . . كأن الله يوقظنا من سباتنا العميق . . . يا الله . . كم هي الدنيا حقيرة ولعينة . .

يا رب . . يا كريم . . يا رحيم . . . يا قادر . .

أغثنا في لهفتنا . . وفرّج لنا في كربتنا . .

* * *

انقلبت حياة الأبوين رأساً على عقب، فالدموع الحارّة التي انسكبت على وجنتي الأب غسلها ماء الوضوء الذي لم ينسكب على وجهه منذ سنوات!!، جميع الصلوات في المسجد مع الجماعة بما فيها الفجر، القرآن جليسه والذكر أنيسه، إرضاء أمه هدفٌ أسمى في حياته . . .

أما الزوجة، فلا تسل عن ريحانة عطرت منزلها بالقرآن تلاوة وحفظاً بعد أن كان يعُج بمزامير الشيطان . . .

* * *

دخل شهر رمضان ودخل معه الأنس، وتبدلت الأحزان بموسى أفراحاً بنعم الله الكثيرة، وانقلب الخوف على مستقبله رضاً بقضاء الله وبما أعده للصابرين .

النهار . . صيام وعمل واكتساب رزق حلال، والليل تهجد وقرآن .

توالت الأيام سحاباً يمطر شجرة الإيمان في قلبيّ الأبوين

لتنمو وينمو معها اليقين بالله.

❊ ❊ ❊

مرّت عشرة أشهر وموسى حيّ يرزق..، كانت نظراته المتفائلة من عينين مشقوقتين تنثر الطمأنينة في المنزل، وتلطم نظرات الإشفاق من والديه فترديها صريعة، وضحكاته الصادقة تُعلمّ من حوله دروساً في حقارة الدنيا وعدم أهليتها لأن يعبأ بها أهلها، أو يكترث بفقدها أبناؤها.

كان موسى يحاول بنظراته وضحكاته أن يقنع والديه أنه بخير ولا داعي للقلق عليه، وأن عليهما أن يهتما بشؤونهما أكثر منه.. وكأنَّ موسى أحسّ بما سيحصل قريباً..

❊ ❊ ❊

سافر الأبوان ومعهما موسى، وفي موعد مع القضاء والقدر في رحلة العودة عبر البر تتعرض العائلة لحادث مروري مؤلم..

مات الأب.. وماتت الأم.. وبقي موسى مع إصابة في رأسه، هي سبب العصابة التي أراها عليه..

❊ ❊ ❊

عجباً منك يا موسى. . . كم كان والده يسأل. . هل سيعيش ولمدة كم؟ فيموت الأب والأم وتبقي أنت بعدهما، فسبحان من استأثر بتقدير الآجال.

ثم عجباً منك يا موسى. . ساقك الله رحمة لأبويك، فانتشلتهما من أوحال الغفلة ودهاليز الظلمة، إلى نور الإيمان واليقين ليموتا على حسن خاتمة ان شاء الله. .

فسبحان من يقدر الخير والفلاح في كفّ المصائب والنوازل. . .

يقول عليه الصلاة والسلام:

«عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن».

(رواه مسلم عن صهيب)

* * *

تمّت

القصة (٣) حينما نختار الموت

حينما نختار الموت[1]

خيّم عليّ صمتٌ ثقيل وأنا أناقش حالة راكان مع بقية الزملاء أثناء مرورنا الصباحي على المرضى المنومين . .

راكان على وشك إتمام ربيعه الثالث . . عليل بمرض يصيب الخلايا العصبية المغذية للعضلات فتبدو رخوةً ويغدو صاحبها عديم القدرة على الوقوف أو الحركة من شدة ضعف عضلاته ورخاوتها . . . المرض وراثي نادر الحدوث . . يكون الأب حاملا له غير مصاب به والأم كذلك . . وإذا شاء الله أن يلتقي عامل الوراثة المصاب من الأبوين . . صار الوليد مصاباً بالمرض وتظهر عليه أعراضه وهذا يحدث لبعض الأبناء أو البنات دون بعض[2]. لم يكن راكان المصاب الأول في العائلة . . بل

(١) أشرفتُ على علاج المريض، لدينا بالمستشفى مطلع عام١٤٢٣هـ.

(٢) هذه مجموعة من الأمراض الوراثية توصف بالمتنحية - أي أن عامل الوراثة (جين) المصاب بالمرض يتنحى ولا يظهر المرض على حامله نظراً لوجود عامل وراثة أخر صالح يغطي النقص، وفي حال كون كلا الأبوين يحمل الجين المصاب، فإن نسبة حصول المرض للمولود «أي التقاء الجينين المصابين من الأبوين لدى المولود» هي الربع (٢٥ ٪) في كل حمل، وهذا لا يعني أن مولوداً من كل أربعة مواليد سيكون مصاباً، بل إن احتمال الإصابة في كل حمل هو ٢٥ ٪ وبالتالي فإن احتمالية أن يكون المولود غير مصاب بالمرض في كل حمل هي ٧٥ ٪ - مثل أن تضع أربع حبات في صندوق احداهن حمراء وثلاث بيض، ثم تدخل يدك لإخراج واحدة فقط فاحتمال أن تكون الحبة بيضاء ٧٥ ٪ والحمراء ٢٥ ٪ وهذه النسبة تتكرر مع كل صندوق جديد.

الثاني، ويتمتع البقية بصحة جيدة، شقيق راكان المصاب يكبره في العمر.. و.. المعاناة...

❊ ❊ ❊

بدأ القلق يساور أبوي راكان منذ نعومة أظفاره، إذ لم يكن قادراً على رفع رأسه بمستوى عنقه.. ثم لم يجلس.. لا ينقلب من شقٍ لآخر.. بل لم يكن يرفع ساقيه..

الوهن في عضلاته كان أبلغ ما يكون.. غير أن عضلات وجهه وعينيه وكما هو المعتاد لم تطلهما يد المرض.. فيبقى قوي النظرات.. حاد التعبير بملامح وجهه، وكأن عينيه تصرخ بمن حول راكان... تطلب النجدة لجسمه..

❊ ❊ ❊

ويدق ناقوس الخطر حينما يتسارع نفس راكان.. إذ أنها علامة التهاب في الرئتين.. وبداية ضعف في وظيفة الجهاز التنفسي، وهي قاصمة الظهر في أطوار المرض حين تضعف عضلات الجهاز التنفسي فلا تستطيع طرد الشوائب والمتسربات إلى الرئتين.. ولا تقدر على مقاومة الالتهابات الناتجة من تراكم تلك الشوائب..

وحين يحدث التهاب فإن راكان قد يحتاج إلى جهاز التنفس الاصطناعي لمساعدة الرئتين على إداء وظيفتهما.. وعندها

تبدأ معاناة أخرى.. سيبقى راكان أسير تلك الآلة «في قسم العلاج المركز» أياماً أو أسابيع أو شهوراً «حتى تسترد رئتيه عافيتهما» فإذا انفك أسُره وأستبشر به أهله... فما هي إلا أيام أو أسابيع ويعود نزيلاً للمستشفى من جديد.. مع التهاب رئوي جديد.. هل من علاج..؟

هل من بلسم يستأصل المرض ويكسر سلاسل هذه الحلقة المؤلمة.. التهاب رئوي.. مستشفى... تنفس اصطناعي.. شبه عافيه... ثم.. التهاب آخر..؟

ليس للمرض علاج ناجع وغالب المصابين يودعون الحياة خلال أول ربيعين منها والسبب المعتاد التهابات الرئتين وفشل وظائفهما.

* * *

كان الحوار بيني وبين زملائي في الفريق في معزل من غرفة راكان.. المرض معروف، والنهاية متوقعه، شعورنا بالعجز واطلاعنا على جزء من معاناة الأهل كانا وجهين لعملة واحدة هي نصيبنا من آلام راكان.

لكن ثمة أمر آخر زاد في مرارة الحوار وألبسه عباءة من التوجس والقلق وهو سؤال طالما ظلل بغمامه القاتم على الأطباء وهم يباشرون علاج أمثال راكان.. هل نستخدم جهاز

التنفس الاصطناعي إذا احتاجه راكان كما هو متوقع أم نتركه بدونه؟! وفي حين يبدو السؤال غريباً لأول وهله.. إذْ كيف نتركه يموت؟! إلاَّ أنه لم ينبع من فراغ..!!

* * *

التنفس الاصطناعي ليس حلاً جذرياً ولا يعالج المرض الأصلي وفي حال تحسن وظائف الرئة - الأمر الذي قد يستغرق أسابيع إن لم تكن أشهراً - فإن التهاباً آخر سيرديها طريحة العوز خلال أسابيع أخرى إن لم تكن أيامًا، وليس هذا كل شيء فإن عدد الأسرة المزودة بأجهزة التنفس الاصطناعي في أقسام العلاج المركز محدودة للغاية، وبقاء راكان ومن في حالة راكان موثقين بتلك الأجهزة رهن تحسن وظائف الرئتين يشغل مكاناً حساساً قد يحتاجه مريض آخر ذو علة طارئة متى تجاوزها عاد إلى حياته الطبيعية.. وبالتالي فإن إنقاذ راكان - المؤقت - قد يودي بحياة آخر...

حياة راكان... اليأس من شفائه.. شغل أسرة العلاج المركز وأجهزة التنفس بحالات لا يرجى برؤها..، تلك كانت بنود المعادلة، وحلها على أرض الواقع لا ينقصه التحدي، ومهما كثرت الآراء والمبررات فإن اتخاذ القرار صعب صعوبة القرار ذاته...

فتاوى اللجان المرجعية[٣] في هذا البلد وفي غيره توالت تفيد عدم استخدام أجهزة الإنعاش والتنفس الاصطناعي في علاج الحالات الميؤس منها حتى لو أدى ذلك إلى وفاة المريض. . . وبالتالي لم يكن مصدر القلق في مناقشة حالة المريض خوفنا من أن نرتكب محرماً، أو نخالف المصلحة، صوت عقولنا واضح النبرة يؤيد الاستسلام التام لقضاء الله والحفاظ على جهاز الإنعاش تحسباً لحالات أخرى وعدم تكرار مأساة راكان بسجنه رهين جهاز التنفس وحبس الجهاز رهينه، إنه صوت واضح يؤيد عدم استخدام الجهاز. . . لكنه يظل قراراً مُرّاً تنبع مرارته من مكامن الشعور لتضرم نار الصراع بين العقل والعاطفة. .

بعد مداولة استقر رأينا. . . أن نُطلع أبويّ راكان على الأمر، دخلنا غرفة راكان في قسم الملاحظة[٤]، ألقيت التحية على أمه الرؤوم. . فأجابت بأحسن منها ثم «الحمد لله. . وصدره تعبان مرّه. . » كلمات ملؤها الهدوء والإيمان ولا ينقصها القلق والتوجس، كانت إجابتها المختصرة لسؤالي عن حال راكان هذا الصباح.

(٣) صدرت عدة فتاوى من اللجنة الدائمة للافتاء برئاسة سماحة الإمام / عبد العزيز بن باز - رحمه الله - تفيد عدم استخدام أجهزة الانعاش القلبي إذا حكم اطباء ثقات بأن المرض لايرجى برؤه.

(٤) دون العلاج المركز.

وقفت بجانب راكان أتفحصه . . كان كومة هلامية من اللحم وكأنها خلت من العظم إذ لا حراك في الأطراف ولا انتصاب في الجذع . . . وعلى غير المعتاد فقد وهنت عضلات وجهه وعينيه فأضحى كسير النظرة . . خافت الضوء، ولم يكن ذلك لنوم قهره أو سبات غطّ فيه، إنما هو الإعياء المفرط الذي خلّفه التهاب رئويٌ حاد صاحبه فشل جديد في وظائف الجهاز التنفسي . . صدره يتحرك ببطء ولا صوت لأنفاسه المستسلمة التي توشك أن تتوقف لتعلن الوداع الأخير . . إنه بحاجة لجهاز التنفس الاصطناعي . .

* * *

أطرقت هنيهة . . كيف أبدأ الحديث مع أمه وما ردّة فعلها . . قد تدرك الموقف فتقبل الخيار أو ترفضه وقد لا تدرك الموقف فتعتبره مساومة على حياة راكان . . كان الله في عوني وعون راكان وأمه . .

التَفَتُ إلى أمه بهدوء وبدَأت الحديث . .

حالة راكان متأخرة . . مرضه معروف لنا ولكم . . أُدخل العلاج المركز عدة مرات . . أمضى في أروقة المستشفيات تحت وطأة الآلام والأدوية ووخزات الإبر وغصغصة أنابيب التنفس أكثر مما قضاه في بيته، بين أهله وأحبابه . .

إن راكان يعاني الكثير في المستشفى.. وأنت يا أم راكان تعانين أكثر.. الوقوف على حالة راكان ومسامرة الآمه.. ترك المنزل ومفارقة الأبناء والضيعات، راكان يحتاج إلى التنفس الاصطناعي وفي حال فعلنا ذلك.. زادت معاناته أكثر وطالت معها معاناتك.. ثم إلى متى...

الله - جل وعلا - حكيم رحيم.. ما قدَّره على خلقه من آلام وأسقام فلرفعة درجات المؤمنين، ووالله.. إن الله لأرحم براكان منا، «وبشر الصابرين..».

إننا يا أم راكان إما أن نتدخل ببدء العلاج التنفسي الاصطناعي فنزيد من الألم ونطيل من عمر المأساة

وما ذاك إلا بقضاء الله وقدره، ونحبس أجهزة التنفس عن مريض قد يحتاجها لإنقاذه من عرض طارىء..

وإما أن نستسلم لقضاء الله البتة.. فيستمر علاجنا بالمضادات الحيوية والأكسجين.. دون التنفس الاصطناعي.. وفي حال توقف التنفس فإنها مشيئةُ الله.. الحكيم الرحيم.. نحن لا ندري فيم الخير..؟ وفي أي الأقدار تنزل البركة.. هذا يا أم راكان ما نراه الأصلح لراكان...

توقفت عن الحديث أنتظر ردها وأنا أدرك عمق جراحها

التي خلفتها خناجر كلماتي . . لم يكن اللين في حديثي ليخفي مرارة الحقيقة وصدمة الخيار . . خيار الموت . .

كان ردها الأول أن استلَّت منديلاً بأناملها المرتجفة، وتسللت به خلف حجابها الوقور . . إنه الصدق في المشاعر حين تترجمه الدموع أبلغ ترجمة . .

«الشكوى إلى الله . . » «أنتم أدرى بما فيه المصلحة . . » . . دعوني أتحدث مع أبيه» «إذا كان سيتعذب طويلاً فـ . . . » .

تلك كانت كلماتها . . قوية . . زاد في قوتها هدؤوها . . واضحة زاد في معناها تقطعها وتبعثرها في حنجرة غصت بالعبرة والدموع . . . حكيمة . . دفنت لوعتها وأخمدت بركان عواطفها بالمشورة وأخذ الرأي . .

طلبت منها أن تتصل بأبي راكان لتخبره الخبر وسأكون في انتظاره . .

* * *

بدأت حديثي نفسه مع والد راكان . . كان وقوراً مُشرق الوجه، تخضبت لحيته بالشيب وعلا كلماته صوت اليقين بالله . .

أدرك من كلماتي خطورة وضع راكان . . ومصيرية القرار . .

تداول الأمر مع أم راكان . . ثم أقبل إليّ مطرقاً . . . قد علاه الحزن . . وبكلمات متعثرة أعلن موقفه وموقف أم راكان . . . «أسأل الله أن يختار له ما فيه الصالح . . »، «افعلوا ما ترونه مناسباً . . » .

تركني وأقبل على ولده راكان . . . وقف أمامه كالطود الذي بدأ يتصدع، صار يرمقه بمقلته الكسيرة، أطال النظر في جسمه الكليل ولمعت دمعة على خده الناصع . . مسح بيده الحانية على صدر راكان الذي صار يخفت نَفَسُهُ أكثر وأكثر . . ثم قبّل جبينه الذي بدأ يبرد . . ضمَّه إلى صدره كأنما يريد أن يشبع منه . . تنهدّ والد راكان وقد تخضبت لحيته بالدموع، نظر إليه نظرة سامرة طويلة . . لقد كان يودع ولده راكان . . الذي ودّع الحياة بعدها بساعات . . .

❊ ❊ ❊

عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات ولد العبد، قال الله تعالى لملائكته: قبضتم ولد عبدي، فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده، فيقولون: نعم، فيقول: فماذا قال عبدي، فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة، وسموه بيت الحمد». رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله - تعالى -: ما لعبدي جزاءٌ إذا قبضت صفيَه من أهل الدنيا، ثم احتسبه إلا الجنة» رواه البخاري.

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ: «دخل على ابنه إبراهيم رضي الله عنه: وهو يجود بنفسه (يحتضر) فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف: وأنت يا رسول الله؟! فقال: «يا ابن عوف إنها رحمة» ثم أتبعها بأخرى، فقال: «إن العين لتدمع والقلب ليحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون» متفق عليه.

❊ ❊ ❊

تمّت

القصة (٤) بل.. أصبر

بل.. أصبر

لا بأس عليك يا حنان.. قالتها أمها وهي تمسح جبينها بمنديل مبلول، وقد أفاقت لتوها من نوبة صرع.. ليست هذه النوبة الأولى التي تصيب حنان، كانت الأولى قبل عشرين سنة تقريباً... وهي في الخامسة من عمرها...

كانت تلعب مع إخوتها والأبوان يتجاذبان أطراف الحديث في غرفة الجلوس.. دخل عليهما رائد مرعوباً وهو يلهث ولا يكاد يحسن الحديث... أبي.. حنان لا أدري ما بها... إنها تموت...

فزع الأبوان مذعورين إلى حنان... لم يتحملا المنظر.. كانت حنان ملقاة على الأرض... عيناها شاخصتان إلى الأعلى... الزبد يسيل من بين شفتيها... وجهها أزرق... صوتها يختنق... جسمها متصلب.. أما اليدان والرجلان فكانت ترتجف بصورة مروعة...

«يا ربي ابنتي..» أول كلمة نطقت بها الأم وهي تضمها إليها.. وكان صداها من الأب «إنا لله وإنا إليه راجعون..» الكل يظن أنها تموت.. هرع الأب إلى السيارة... ركض الجميع بجنون عبر باب قسم الإسعاف.. وحنان ما زالت

ترتجف . . . بكاء الأم . . يصاحبه حوقلة الأب واسترجاعه . . جمعهما سؤال واحد بادرا به الطبيب الذي باشر حنان بالإسعافات الأولية . . . هل هي تموت؟

لم تكن كلمات الطبيب وحدها بالتي طمأنتهما . . توقفت حنان عن الرجفان وزال صوت الاختناق، وبدأ لون وجهها يعود كما كان تحت تأثير إبرة لإيقاف التشنج بإذن الله . . .

وضَّحَ لهما الطبيب الموقف باختصار . . ، «هذه حالة تشنج، أسبابها عديدة . . . سيحتاج الأمر إلى بعض الفحوصات المخبرية، مع إشاعة للرأس، وتخطيط كهربائي لأنشطة المخ، وستكون المتابعة مع طبيب الأعصاب . . . » .

لقد كان منظر حنان . . وهي في غيبوبتها تحت تأثير العلاج يحكي كل معاني البراءة والضعف . . ، لا تستجيب لصوت، فمها يغطيه قناع الأكسجين، غامضة العينين . . بطيئة النفس . . لا حراك . . إلا لبعض شعرات رأسها . . التي كانت تبعثرها أنامل والدتها . . وهي جالسة بجوارها تتوسل إلى الله . . أن يحفظ حنان . . . ويشفيها . . .

⁂

«النتائج مطمئنة . . . النوبة قد تعاودها . . . تحتاج إلى دواء لمنع تكرارها . . . ستعيش حياة طبيعية مثل غيرها إن شاء الله . . . » .

كانت هذه أبرز الجمل التي علقت بأذهان الأبوين من كلام طبيب الأعصاب.. الذي حاول جاهداً تخفيف معاناتهما وقلقهما.. لقد كان الطبيب يدرك بشكل كبير مخاوف الأبوين.. وبالذات.. الأم..

ماذا لو تكررت النوبة وحنان في دورة المياه والباب مغلق...؟ ماذا لو أصيبت وهي في المدرسة العام القادم...؟ هل من خطورة على عقلها وتفكيرها...؟.. وأهم من ذلك.. هل سيعلم الناس بخبرها... وإذا علموا.. ماذا سيكون موقفنا... بالذات وأن حنان فتاة...

لقد كان الطبيب يؤكد في كل زيارة للمتابعة... «أن الكثير من الصغار والكبار في العالم مصابون بالصرع ويستجيبون للعلاج.. ولا داعي لوجود حصار اجتماعي للمريض، الناس يذيعون خبر الإصابة بالسكر، بالضغط، بفشل الكلى، بضعف القلب.. بل بالأورام السرطانية.. لكنهم لا يتكتمون على خبر الإصابة بالتشنجات الصرعية فحسب، بل يسجنون مريضهم وأنفسهم في زنزانة اجتماعية.. خوفاً من نظرة الناس وكلامهم..».

ويستطرد الطبيب. «إن مجتمعنا مع الأسف كباقي كثير من المجتمعات.. لا يُحسن التعامل مع الأمراض النفسية والعصبية.. فبدلاً من مبادرتها وسؤال المختصين عنها

يتكتم عليها ويحرم نقاشها والسؤال عنها.. حتى تتفاقم ويصعب علاجها... الصرع مثل باقي الأمراض.. له سبب، يُشخّص.. ثم يعالج.. ونسبة الشفاء فيه عالية ولله الحمد...».

* * *

مضت الشهور... أصيبت حنان بنوبة ثانية.. ثم ثالثة بعد سنة... استشار أهلها أكثر من طبيب... هل يلزم تغيير الدواء..؟ هل نسافر بها إلى الخارج..؟ كانت الإجابة.. «لا داعي لذلك فبعض الحالات تستدعي الاستمرار وقد يحصل بعض النوبات... وفي حال إيقاف العلاج... فإن عدد النوبات قد يزيد ويتضاعف...».

استشار والدها إمام جامع الحيّ، بعض الناس نصحهم بإيقاف الأدوية ومراجعة متخصصين في الأدوية الشعبية، آخرون يرون مراجعة أحد المشعوذين فقد يكون الأمر سحراً أو مسّاً لا يقدر عليه إلا مشعوذ خبير...

كانت نصيحة إمام الجامع مسجّاةً بالحكمة... وكلماته تاجاً مرصعاً بالعلم والوقار..

«المرض بلاء.. والمؤمنون يُبتلون على قدر إيمانهم.. وإنما يُوفى الصابرون أجرهم بغير حساب.. الأخذ بأسباب العلاج

من المتخصصين مطلب شرعي، إيقاف العلاج لا مبرر له. . . الرقية الشرعية والدعاء بالشفاء نور على نور وخير بلا شر. . وعدم الشفاء لا يعني عدم إجابة الدعاء، فمن لم ير الشفاء بعد الدعاء، لا يدري إن كان الله قد ردَّ عن مريضه بلاءً أكبر مما هو فيه. . . ما ظنك لو كانت حنان من ضمن الحالات المتأخرة التي تصيبها النوبات في اليوم الواحد أكثر من خمسين مرة ويصاحبها اعتلال في المخ والقدرات العقلية. . . وهو أمر حكاه الأطباء عن حالات صرع مستعصية يشاهدونها. . . ومن حكمة الله ورحمته أن يؤجل الإجابة أحياناً لخير يريده بعبده في الدنيا أو الآخرة أو كليهما. . . يا أبا حنان. . ثق أن الله أرحم بعباده من أنفسهم. . وأنه لا يقدّر لعبده المؤمن إلا خيراً. . . وإياك. . إياك من ظلمات السحر والشعوذة. . فإنها دهاليز مظلمة تبدأ بالحيرة والشك وتنتهي بالكفر والضلال. . . ».

وختم الشيخ نصيحته ببشارة لم يسمعها والد حنان من قبل. . .

هرول والد حنان مسرعاً إلى المنزل. . . «أم حنان. . تعالي. . ابشري. . » كان مسروراً. . مرتاح البال لكلمات الشيخ التي لم تكن مجرد كلمات. . بل كانت ماء زلالاً سقى ظمأ مصابه وآلامه. . .

* * *

انفرجت أسارير أم حنان وعلت وجهها علامات الرضا . . وقد سمعت من أبي حنان البشارة . . « جاءت امرأة إلى النبي ﷺ تشتكي قائلة . . يا رسول الله إني أُصرع (يصيبها الصرع) فادع الله أن يشفيني . . فقال عليه الصلاة والسلام - وهو الرحيم بأمته - إن شئت دعوت الله لك وإن شئت فاصبري ولك الجنة . . . قالت . . يا رسول الله . . بل أصبر . . ثم قالت . . يا رسول الله إني أتكشف فادع الله لي أن لا أتكشف . . فدعا لها عليه الصلاة والسلام» .

أرأيت يا أم حنان . . . المصاب بالصرع إذا صبر فله الجنة . . . نعم له الجنة . . . إنه وعد من النبي ﷺ . .

لم تكن حنان تعرف حقاً ما بها . . . إذا أفاقت من نوبة . . سألت «ما بي . . ؟ أين أنا . . ؟» «لا شيء يا حنان . . مجرد دوار وستكونين بخير» . هكذا يجيبها من حولها . . والدواء الذي تتناوله بشكل يومي . . هو منشط يساعد على تخفيف الدوار . .

تصرمت الأيام والسنون . . كبرت حنان . . وكان لابد لها من أن تعرف الحقيقة . . . قام أبواها بنفس الدور الذي قام به

الطبيب في بداية الأمر.. «الأمر سهل يا حنان.. العلاج يسير وأنت تتناولينه منذ سنوات طويلة... كثيرُ مصابون بنفس المرض وحياتهم طبيعية.. وها أنت يا حنان على أبواب التخرج من الجامعة... متفوقة.. محبوبة... همّك الأول.. إرضاء الله ثم والديك.. النوبات ليست متكررة ولله الحمد فقط مرة في كل شهر أو شهرين.. اسم المرض منبوذ عند الناس.. لا تقبله مشاعرهم.. لكنه في حقيقة الأمر أهون بكثير... ولا تنسي يا حنان البشارة... الجنة...».

❊ ❊ ❊

كانت حنان أكبر من طموحات والديها وهما يخبرانها الخبر... كانت أكثر منهما سكينة وأقل منهما قلقاً على مستقبلها... «إنني أعرف ما بي منذ سنوات قبل أن تخبراني!! نعم لا تستغربا.. هل تظنان أن فتاة تجاوزت العشرين.. ستستمر في ابتلاع دواء يومي دون أن تعرف لماذا..؟! لقد سألت عن الدواء واستخدامه ثم سألت عن حالتي في المستشفى... إنني أعرف أدق التفاصيل عن مرضي... لا تقلقا.. أنا بخير.. إنني أحمد الله صباح مساء الذي جعل مصيبتي في جسمي.. لا في عقلي أو ديني.. أنا أفضل حالاً من سعاد صديقتي في الثانوية.. التي أصيبت بحالة نفسية انتهت بها إلى ترك الدراسة والانطواء في المنزل.. وأفضل

حالاً من كثير من الفتيات اللاتي يتمتعن بصحة جيدة لكنهن سُلبن أهم نعمة وأكبر منّة.. سُلبن الدين.. لا يُصلين.. وحياتهن مليئة بالضياع واللهو.. بل والعلاقات المحرمة، ما الفائدة إذا عشت سنوات بصحة جيدة، سليمة من الأمراض ثم قابلت الله وهو علي غضبان... مرحباً بالمرض.. نعم مرحباً بالمرض.. إذا كان الله راضياً... لا أقولها تفاؤلاً بالشر.. لكن رضىً بقضاء الله وقدره... نم قرير العين يا أبتي... كوني مطمئنة يا أمي.. أنا بخير.. نعم أنا بخير...».

* * *

تلك هي قصة مرضها، استعرضت حنان شريطها وبسرعة، وأمها ما زالت تمسح جبينها وقد أفاقت لتوها من نوبتها الأخيرة.... سَبَحَتْ حنان بخيالها في بحر متلاطم من الأفكار والشوارد... تذكرت صباها.. وتذكرت ضحكاتها وهي تحمل شهادة الثانوية...، مجالس الأنس مع والديها وإخوتها...، أيام السهر والتعب في المرحلة الجامعية...، كلمات صاحباتها لها مدحاً وثناءً بالذات... صديقتها هدى.. رفيقة دربها ومعينتها على الخير.. التي رددت أكثر من مرة «.. حنان.. أنا أغبطك على ما وهبك الله وأتمنى أن أكون مثلك..».

تستطرد حنان في خيالها... هل حقاً ستتمنى هدى أن

تكون مثلي لو عرفت حقيقة مرضي. . ؟! تنظر حنان إلى علبة الدواء جانب السرير وتطيل النظر. . . لم تكن حنان تشاهد العلبة أو الدواء بداخلها. . لقد كانت ترمق أيامها ولياليها وطموحاتها ومستقبلها. . . وتتساءل. . «هل هي سجينة هذه العلبة. . ؟!» سؤال نبع من قلبها. . وارتَدَّ صداه في جنبات صدرها، لم تكن أمها التي مازالت تمسح على جبينها تعلم بهذه الأمواج المتلاطمة في كيان حنان. . .

استمرت حنان تستعرض شريط حياتها وقد تسرب إليها القلق والهم والإجابة على السؤال تزداد صعوبة وحسرة، وحجبت غمامة سوداء كل أنوار غرفتها وتفجر السؤال الثقيل عن أسئلة مرّة كئيبة. . «كيف سأعيش بهذا المرض، كيف سأتزوج، كيف سأربي أولادي، وصارت الظلمة حولها تزداد والأسى يتضاعف وخيوط الأمل تتقطع الواحد تلو الآخر، من يخلصني، من يرحمني من. . . ، من. . . » وفي زحمة مشاعرها. . . بل ومن تحت ركام الخيال الأسود المتشائم. . يدوّي صوت الخيار النبوي الكريم للمرأة التي سألته. . . «أدعو لك أو تصبرين ولك الجنة. . » لقد كان صوته أقوى من كل شيء في نفسها. ، تملكها الموقف. . كأنها ترى النبي عليه الصلاة والسلام وهو يخيّر المرأة. . بل كأنه يخيّرها هيّ. . نعم كأنه يخيّرني. . . سَبَحتْ حنان مرة أخرى. . لكن هذه المرة

ليس في بحر التشاؤم الأسود.. بل في أي الأمرين تختار.؟ لم تطق الصبر.. لم تتحمل وجود أي فرصة للتفكير.. سطع الأمل من جديد... وتبددت سحب الألم والقلق التي كادت أن تجثم على صدرها.. ومن دون أن تشعر قالتها بلسانها الذي تخلص من قيود النوبة... فدوت بصوت قوي... واثق... ملؤه الرضا...

... بل أصبر

* * *

تمـــت

القصة (٥) التحدي

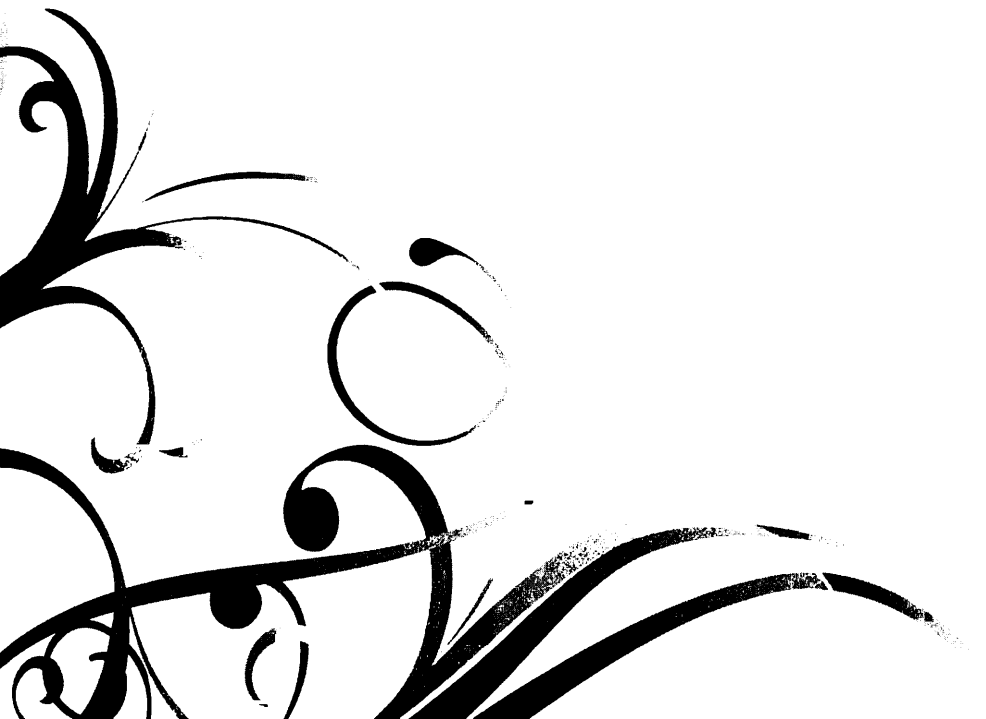

التحدي

بدأت مروري الصباحي بقسم الملاحظة كما هي عادتنا في مستشفى الأطفال، النزيل الجديد لذلك اليوم.. طفل يمني لم يتم ربيعه الأول بعد، أشحب اللون، علاه الصفار - اليرقان -، مُنهك القوى، منتفخ البطن، ينزف أنفه دماً.. فسَّرت أمه الوقور الواقفة بجانبه كل شيء بقولها «عنده الكبد[1] تعبانه يا دكتور..» وبهدوءٍ خالجه القلق حكت قصته المرضية باختصار..

«الولادة طبيعية.. رضاعته ممتازة.. بعد عدة أسابيع اصفَرَّتْ عيناه، وصار لون بوله داكناً، ضعفت رضاعته، وخارت قواه.. فعرفت أنه مصاب بالكبد».. فاستغربتُ

(١) «الكبد عضو حيوي ذو وظائف أساسية متعددة منها المساهمة في هضم الطعام وإجراء العمليات الحيوية لتصريف وتحويل المواد الغذائية والاستفادة منها بعد هضمها وامتصاصها، ومنها تصنيع بعض المركبات الهامة مثل الجلوكوز، وأكسدة الأحماض الدهنية لإنتاج الطاقة، ومعاملات تخثر الدم والبروتينات، ومنها التخلص من بعض المواد مثل صبغة البيليروبين الصفراء واستخدامها في هضم الدهون ومادة الامونيا.. وغيرها من الوظائف وفي حال ضعف الكبد تتجمع مادة البيليرو بين في الجسم فيظهر الصفار على المريض، وتزيد قابليته للنزف بسبب نقص معاملات التخثر، وترتشح السوائل في جسمه بسبب نقص البروتين - الزلال - وتظهر على المريض علامات الضعف والوهن، وتتجمع مادة الامونيا المضرة بالجهاز العصبي مما قد يسبب فقدان الوعي..».

كيف عرفت أن ما ظهر على ولدها علامات اعتلال الكبد. . وقع عليّ جوابها كالصدمة. . «إنه الطفل السادس يا دكتور، كل أطفالي الخمسة الذين سبقوه ماتوا بسبب فشل الكبد. . .

يُولدون ولادة طبيعية، وحالتهم مستقرة، فما إنْ يتجاوزوا عدة أسابيع إلا ويصيبهم الإعياء، ويكسوهم الصفار وتخار قواهم، فإذا فشلت وظائف الكبد أكثر انتفخت بطونهم بسبب تجمع السوائل، وتعرضوا للنزف من الأنف أو الفم أو من الأسفل. . .».

قضت مع كل واحد منهم أسابيع في المستشفيات، لم يتوصل الأطباء إلى معرفة سبب اعتلال الكبد، تمَّ منهم بمستشفى الملك فيصل التخصصي بالرياض، ومع استنفاذ كامل الفحوصات المتاحة، لا سبب معروف، ولا علاج متاح، تتردى حالة الطفل أكثر فأكثر حتى يموت بين يدي أمه وعلى مقربة من الأطباء والفنيين وتحت ملاحظة أجهزة المراقبة الدقيقة. . . والجميع لا يملكون فعل شيء. . .

تتناسى الأم مصيبتها أن فقدت وليدها بانشغالها بهموم الحمل الجديد والآمه، ومع قرب الولادة تعود الذكريات المُرَّة ثم يزداد القلق مع كل إشراقة يوم جديد خوفاً من أن ترى وليدها الجديد. . أصفر اللون أو داكن البول. . فما هي إلاَّ أسابيع ويقع ما كانت تخشاه. . وهكذا تدور الأحداث المؤلمة

دورتها مع هذه الأم الرؤوم في خمسة فصول ثقيلة، يزداد ثقلها كلما تذكرت مصير السابق منها، أو استشعرت احتمالية إصابة التالي من أولادها.. وها هي الآن تكابد الحسرة في فصلها السادس..

الأبوان يتمتعان بصحة جيدة، ولا أحد من أقاربهما يشكو من نفس العلة، أغلب الظن أن الأطفال الستة مصابون باعتلال «وراثي متنحي»[٢] في عمليات الأيض الكبدية نتيجة نقص أحد الإنزيمات، إلا أن وسائل الفحص المتاحة لم تحدد المشكلة بالضبط، ولا يوجد علاج ناجع، والأمل الوحيد هو زراعة كبد والنتائج ليست مؤكدة.

تملكَّني العجب من المرأةوقدرتها على تحمل هذه الصدمات المتوالية، لقد كانت بسيطة في كلماتها، صادقة في تعبيرها عن الخوف والقلق من مصير طفلها السادس، حين ختمت قصة مرضه بقولها.. «يا دكتور... ما عرفتم السبب حتى الآن؟! هل فيه علاج؟!» إنه إن كان لسانها نطق بهذه الأسئلة فكأنما قلبها يسأل.. هل سيموت؟!

لاحظت في كلماتها قوة اليقين بالله والرضا بقضائه وقدره إذ ما فتئت تعلنها بين الجملة والأخرى..، .. «الحمد لله، رضينا بقدر الله... الذي يكتبه الله حياه الله.. آمنا

(٢) انظر ص ٣٨ هامش رقم (١).

بالله . . . » .

وإلا فأنَّى لامرأة أن ترى فلذات كبدها الخمسة يموت الواحد بعد الآخر بالمرض نفسه ، وترى السادس في منتصف الطريق ، ثم لا تموت هي كمداً وحسرةً ، لقد كانت كلما ولدت طفلاً فكأنما وُلدت هي معه من جديد ، بأمل جديد ، فإذا مرض مرضت معه ، فإذا مات ، دفنت نفسها وآمالها قبل أن تدفنه ، ثم تلد نفسها أخرى مع الطفل الذي يليه . .

نعم! كأنما ماتت خمس مرات وها هي تصارع السادسة ، لكنه الإيمان واليقين . . حين يرقى بالنفس فوق عوالق الأرض وجواذبها .

* * *

وقفت أمام الطفل المريض أتفحصه وهو يرمقني بمقلتين تسألاني . . .

هل ستعرف علتي . . ؟

هل لديك علاج . . . ؟

توارت عيناي عن عينيه خجلاً . . إذ ليس لدي جواب . . استمرت نظراته وزادت حدةً وقد أتممت فحصي لجسمه . .

شعرت هذه المرة أن عينيه تتحداني . . أن أعرف العلة وتتحداني . . أن أقدم له العلاج الناجع . . غير الأدوية المعتادة

مع نقل الدم ومعاملات التخثر التي تُقدم له في كل مرة يرقد أسير السرير الأبيض عبر شهوره السالفة . .

* * *

لم أطق نظراته المتحدية . . أعلنت عيناي الاستسلام بأن أغمضتهما أمام عينيه ، وسألت الله القدير أن يلطف به ويأخذ بيدي والديه وأن يأجرهم في مصيبتهما ويعيضهما خيراً منها . .

* * *

بقي لدينا عدة أيام . . كل ما نملكه رعاية مسانده . . نقل دم . . و بلازما لمكافحة سيولة الدم والنزيف . . وسوائل مغذية وعناصر منشطة . .

استمرت أمه كالطود الشامخ في صبرها ويقينها بالله وثباتها كلما تدهورت حالته فأصيب بإغماء أو زيادة نزيف . .

لم تكن عبراتها التي تخنق كلماتها تؤثر على صبرها وثباتها حتى في ذلك الصباح الباكر الذي مررت فيه للاطمئنان على وضعه . . فلم أجده في سريره . . كان في سرير الإنعاش داخل العلاج المُرَكَّز ، يبذل معه الأطباء المناوبون ما في وسعهم لإنقاذ حياته . . ولكن . .

* * *

رجعت إلى أمه كيّ أعزيها في مصابها بفقدانه، وقد رتبت بعض الكلمات، تهاوت كلماتي وتلعثم لساني وأنا أراها تلملم أغراضها وأغراض طفلها.. ملابسه، رضّاعته، بل وحتى حفاظا ته..

لقد رأت كل شيء عبر باب العلاج المُرَكَّز، كانت صامتة إلاَّ من كلمات الحمد والثناء على الله والاسترجاع التي تتعثر في عبرات صوتها المخنوق.

* * *

كم شعرت لحظتها بعجزي وعجز الطب الحديث، وضعفي وضعف الطب الحديث، مهما بلغ الطب من تقدم في الفحص والعلاج فإن ما نجهله يظل أكثر بكثير مما نعرفه

﴿ وما أُوتيتُم مِّنَ العِلْمِ إلاَّ قليلاً ﴾ [الإسراء: ٨٥].

لقد قطع الطب الحديث شوطاً كبيراً في تشخيص الأمراض وعلاجها والوقاية منها، إلا أن أمراضاً أخرى قديمة العهد مازال الطب عاجزاً أمامها كالحساسية مثلاً، وأمراضاً أخرى استجدت سماها البعض بأمراض العصر، بل إن بعض الأمراض الناشئة حديثاً أجبرت الطب على أن يفرد لها تخصصات مستقلة مثل الأمراض المهنية (أي المتعلقة ببعض المهن) فضلاً عن أن بعض الأمراض تنتج بسبب التدخلات الطبية من فحوصات وأدوية،

فإن كان الطب يتطور من جهة فإن الأمراض تتعقد وتتنوع من جهة أخرى، كل هذا يؤكد بشرية البشر، ودوام عنصر النقص والضعف في طبيعتهم وهذا ما يحتاج أن يستصحبه المريض وهو يدلف عبر باب المستشفى للعلاج ليكون الطب والأطباء مجرد سبب أما الشفاء فهو بيد الشافي سبحانه القائل:

﴿ وإذا مرضتُ فهو يشفين ﴾ [الشعراء: ٨٠]

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من مسلم يموت له ثلاثة لم يبلغوا الحنث إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم**» (متفق عليه).

لم يبلغوا الحنث: أي لم يبلغوا الحلم فتكتب عليهم الآثام

❊ ❊ ❊

القصة (٦)

العنود ضحية من؟!

العنود.. ضحية من؟!

ذات مساء كنت مناوباً ضمن الفريق المناوب بالمستشفى...

دَلَفَ عبر باب الإسعاف أبوان يركضان بابنتهما وهي فاقدة الوعي..

اسمها العنود.. أكلت عدداً كبيراً من أقراص الحديد[1] المقوية.

* * *

باشرنا الإسعافات الأولية.. أكسجين.. أنبوب في القصبة الهوائية لحماية الرئتين من إفرازات المعدة، أنبوب في المعدة لغسلها واستخراج ما فيها من بقايا الأقراص، نقلت إلى قسم العلاج المركز.. تحت العناية الفائقة، وبدأنا عقاراً يستخلص مركب الحديد من الجسم ويخرجه عبر الكلى...

(١) المكان الأنسب لحفظ الأدوية - صندوق (صيدلية) خاص مقفل وفي مكان مرتفع، وفي حال اضطر الأبوان لوضع بعض الأدوية في غرفة النوم فلتكن في الدرج العلوي من خزانة (دولاب) الملابس بدلاً من (التسريحة أو الكميدون) وفي حال الحاجة لاستخدام الثلاجة فلتكن الأدوية في الغرف العليا من الباب بدلاً من السفلي، وفي كل الأحوال يجب أن تكون العلب محكمة الإغلاق وذات غطاء خاص ممانع للأطفال.

فرغنا من الإسعافات الأولية. . . ثم التفتنا إلى الأبوين نسألهما عن القصة. .

* * *

العنود في السنة الثانية من عمرها، تملأ البيت ضحكات وأهازيج، وجهها كالوردة النيرة اتكأت على غصن جسمها الطريب. . تقفز وتلعب هنا وهناك. . . وفي غفلة من الجميع. . وصلت إلى غرفة نوم والديها. . . وبطبيعة حب الاستطلاع. . . تفتح الدواليب وتقلب الملابس وتنثر الأغراض. . فتحت (الكمودين) جانب السرير. . وجدت كيساً مملوءاً بأقراص زهرية اللون، حسبتها حلوى خبأتها أمها لساعات الأفراح وما علمت أنها أقراص حديد مقوية، تتعاطاها أمها التي تعاني من فقر دم. .

بدأت العنود في ابتلاع الأقراص اغتناماً لفرصة خلوتها وسهولة وصولها. . إذ كانت في متناول اليد. .

* * *

استغربت الأم هدوء المنزل من صوت العنود. . فتحركت غريزة الأمومة. . يصاحبها شيء من القلق والتوجس. . صارت تنادي في أرجاء المنزل. . العنود. . العنود. . ولا أحد يجيب، استعرضت غرف المنزل غرفة. . غرفة. .

حتى دخلت غرفة نومها.. فوجدت العنود... ملقاة على الأرض، وحولها عدد من أقراص الحديد، نادتها باسمها فلم تجب، حركتها بيدها فلم تطرف لها عين...

صرخت بأعلى صوتها منادية أبا العنود، حملاها مهرولين إلى السيارة حتى دخلا بها باب الإسعاف، لم يقر للأبوين قرار.. «طمنا يا دكتور... ستعود لحالتها الطبيعية؟! هل يضرها ما حصل..» الأم تغدو وتروح مخطوفة اللون، متعثرة الكلمات، أصابها الهلع خوفاً على مصير ابنتها، تنادي الله بأن يحفظ العنود تارة، وتلوم نفسها على ترك الأقراص في متناول اليد تارة، وتستسلم للقضاء والقدر تارة..

قضت العنود أياماً فاقدة الوعي في العلاج المركز تخللها اعتلال في الرئتين واختلال في أنزيمات الكبد وبعض الارتباك في وظائف الكلى..

كانت كمية الأقراص التي ابتلعتها كبيرة، والوقت الذي مضى بين ابتلاعها واكتشاف الأمر من قِبَلِ الأهل غير معروف..

بولها كان زهري اللون بفعل خروج الحديد مع العقار الذي يستخرجه من الجسم.

كان وضعها حرجاً، ونسبة المضاعفات عالية ومما يزيد الأمر

حسرة، تمام صحتها قبل الحادثة، ونظارة وجهها وبراءته وهي مسجاة على السرير الأبيض في قسم العلاج المُرَكَّز.

كنت أقف بجانبها أطمأن على العلامات الحيوية وعمل الأجهزة الأساسية، فيسترعيني براءتها في غيبوبتها، فأطيل النظر فيها ثم أتساءل..

ضحية من أنت يا عنود..؟!

هل هي ضحية الطب الذي أنتج عقار الحديد لعلاج مرض فقر الدم؟

أم هي ضحية الشركة المصنعة للعقار حين جعلته أقراصاً تشبه الحلوى؟ وهل تستطيع إنتاجه بصورة أخرى لا تلفت نظر الأطفال؟

أم هي ضحية الأبوين حين تركا العقار قريباً من متناول العنود؟..

لطالما تكررت النداءات بحفظ الأدوية بعيداً عن متناول الأطفال، ويؤكدها الملصقات المطبوعة على علب الأدوية، ويدعمها برامج التوعية الصحية المرئية والمسموعة والمقروءة.

حفظ الأدوية في صناديق خاصة، وفي الرفوف العليا من ثلاجات التبريد، نصيحة طرقت الآذان بكثرة، إلا أننا وبشكل مستمر نستقبل حالات التهام الأدوية من قبل الأطفال وكثيراً

ما تكون غرفة نوم الأبوين مصدر تلك الأدوية وبالذات رفوف (التسريحة) أو (الكميدون)[٢]..

حانت ساعة الفرج.. العنود تستعيد وعيها.. الرئتان، وظائف الكلى وأنزيمات الكبد.. في وضعها الطبيعي..

فرحة أم العنود لا تكاد توصف وهي تحملها بين يديها، تشبعها قبلات وضمات «.. الحمد لله الذي أراني إياك حيه...».

* * *

ملأت العنود غرفتها بالمستشفى ضحكات جديدة ولكن بصوت «مبحوح» هذه المرة من أثر أنبوب القصبة الهوائية، سيستمر الأمر بضعة أيام، بادلتها أمها أهازيج الحب الصادق، ثم ودعتا المستشفي وقد خرجت منه العنود تمشي، ضاحكة وتمسك بيد أمها..

* * *

(٢) يعد تسمم الحديد من أكثر أنواع التسمم بالأدوية شيوعاً لدى الأطفال وأبرز الأضرار الناتجة عن تسمم الحديد هي إصابة الجهاز الهضمي وتقرحاته، اعتلال الدورة الدموية وهبوط ضغط الدم مما يؤثر على وظيفة الأعضاء الحيوية كالكلى والرئتين. تلف جسيمات المتيكوندريا في الخلايا وإصابة الكبد والجهاز العصبي.

تأملت الموقف مرة أخرى ونحن نودع العنود وتساءلت هل سنرى ضحية أخرى . . ؟؟

يقول عليه الصلاة والسلام: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالرجل راع في بيت أهله ومسئول عن رعيته، و المرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها . .» .

(متفق عليه عن ابن عمر)

* * *

تمّت

القصة (٧) محـــروم

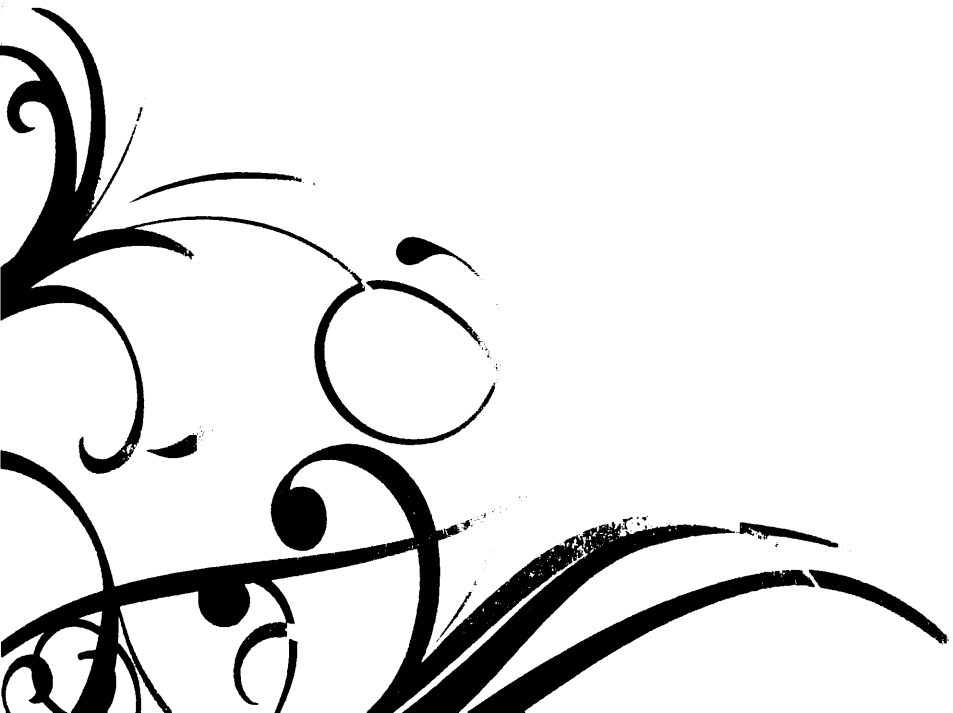

محـــروم[1]

كانت جثة هامدة أو شبه جثة . . . لا حراك . . لا قدرة على الأكل والشرب . . . لا تقوى على الكلام . .

تقلبها أيدي الممرضات على السرير الأبيض، مستسلمة وبدون أية مقاومة ولا تملك إلا أن تحملق بناظريها في وجوههن وأيديهن، ثم تختم المشهد بدمعة حزينة من عينيها التي لا تقوى على إغماضها من أثر الجلطة التي أصيبت بها قبل أسابيع، لتنهمر على خدها المتجعد من أثر الشيخوخة والمرض . . لم تكن كتلة لحم فحسب بل جبالاً من الألم والأسى . . .

* * *

تقليبها على السرير موجع لما بها من هشاشة في عظامها، تتغصص الألم وتتجرع المعاناة عند تغيير الأنبوب المغذي عبر الأنف إلى المعدة، تكابد الحسرات وغيرها يتولى تنظيفها وتخليصها من الفضلات . . . لا أحد يستشيرها أو يعبأ برأيها . . . لا دور لها فيمن حولها . . .

إن لكل لون من هذه الآلام القدرة على تفسير دمعتها الحارة . . . وهو ما يظنه من حولها . . . لكنها نسيت كل هذه

(١) كانت المريضة منومة لدينا بأقسام الباطنية .

الآلام وجفت منابع دموعها حين غشيها طوفان لم تحسب حسابه. . . أتى على كل حزن قديم. . وألم مصاحب. . . لا ليمحوه؛ بل ليستبدله بطعنة حارة مسمومة، لم تُجهز على قلبها المكلوم فحسب. . بل قتلت كل خلية في جسمها. . كل قطرة دم في عروقها. . كل شاردة وواردة في مشاعرها وأحاسيسها. . إنه حزن جديد. . . من لون آخر. . وله قصة ترويها نظراتها المسكينة. .

* * *

كانت صبية عاشت صباها مثل أقرانها، وكبرت لتدخل عش الزوجية. . ثم بدأت فصول قصتها الحاسمة. . أحست ذات يوم بدوار ورغبة في القيء، أخبروها أنها أعراض حمل ويسمونها ﴿وَحَمَ﴾. . تغيّر طعم كل شيء في فمها. . حتى الماء والسكر بل والعسل، لم تكن تأكل شهية. . وإنما حفاظاً على جنينها، تتحاشى الإجهاد، لا رأفة بنفسها وإنما خوفاً على ما في حشاها. . . مرت الأشهر الأولى من الحمل. . وقد خسفت بنور وجنتيها، وبريق ناظريها. . وأبدلتها شحوباً في لونها وضعفاً في حالها وقوامها. . . وما كادت تلك الفترة تنجلي. . إلا وأعقبها ثقل الحمل، لم تكن تحمل حجراً على ظهرها تتخلص منه للراحة والاستجمام، لقد كانت تحمله كُرهاً. . يضايقها في الحركة. . في الجلوس. . عند الأكل. .

بل حتى في النوم. . . ، تقلصات مؤلمة. . الآم في الوركين والأقـدام. . شعور متواصل بالحر والتعرق. . ثوران في النفس. . إجهاد عند بذل اليسير من العمل. . ، لكن ذلك كله هان عليها مع أول طلقة من طلقات الولادة. . .

كانت التجربة الأولى بالنسبة لها. . . لم تكن تتصور حجم تلك الآلام. . تذكرت أحاديث النساء حولها في جلسات الأُنس والسمر وآهاتهن في وصف معاناتهن، لكن ما شعرت به في أولى تلك الطلقات جعلها تدرك أنها في كُربة، كأن حشاها يتمزق. . ليُنتزع منه القطعة تلو القطعة. . كأنما تتنفس من ثقب إبرة. . كأنما آلام الدنيا كلها اجتمعت فيهتز لها جسمها وترتعد فرائصها كلما بدأت طلقة. . ومع نهايتها تشعر بأنها عادة للحياة من جديد. . . ولكن في انتظار طلقة أخرى. . كل طلقة تستغرق بضع دقائق في ساعة الزمن لكنها كانت قروناً في مشاعرها، وكأنَّما عمرها كله صار في إحدى تلك الكربات. . عندها أدركت حقاً مراد عبد الله بن عمر رضي الله عنهما حين قال للرجل الذي حجَّ بأُمه على كتفه وطاف بها وسعى وسأل هل وفَّاها حقها؟ فأخبره أنه لم

يوفِّها حق طلقة واحدة من طلقاتها حين ولدته. . .

لم تكن الأوجاع وحدها ما يشغل البال. . . لقد كانت المسكينة تصارع همَّاً آخر في خضم آلام المخاض. . . في تلك

اللحظات الحرجة والكُرُبات المُفزعة يحق لكل إنسان أن يكون أنانياً يفكر في خلاصه ونجاته بغض النظر عن غيره.. إلا هذه الأم المسكينة فقد كان همُّ سلامة الجنين وكمال خلقته الشغل الشاغل لها والهمّ المسيطر عليها يزيد مع زيادة الآلام والكرب، ويطول مع طول مدتها...

❊ ❊ ❊

وفي لحظة لا تنسى... هلت دموع فرحها.. مع صوت بكائه وقد خرج سليماً معافىً، صارت تمسح عَرَقَها المتصبب من جبينها في حين قام غيرها بتنظيف الوليد ورعايته.. تفجرت ينابيع الرحمة في صدرها... وتدفقت أنهار الحنان مع أول لحظة التقم فيها الوليد ثديها.. لم تكن ترضعه لبناً فحسب.. بل حُبّاً وحناناً.. إذا ضمته لصدرها فإنما تفتح شغاف قلبها لتُسكنه آمناً في أوسطه... وإن تعجب فعجب ضحكاتها وأهازيجها وهي تمسح فضلاته بيديها.. كانت تحرك شفتيها وهو يأكل وكأنما هي التي تأكل... تصاب بالإعياء وضيق الخاطر إذا مرض... وكأنها هي التي مرضت... ظل يكبر وتكبر معه آمالها فيه.. لم تكن فرحته بالنجاح في الدراسة بأكبر من فرحتها.. ثم لم يكن همُّه في اختيار الزوجة المناسبة شيئاً في ميزان همها وقلقها..

ليلة زفافه كانت شمعة في حياتها.. انتظرتها بفارغ

الصبر.. سهرت.. تعبت.. دعت وتبتلت من أجلها.. صارت أماً لزوجته.. وبعد فترة، صارت أماً لأولاده أيضاً.. لم تكن ترعاهم وتلاعبهم فحسب.. بل صارت حضناً آمناً لهم في حال غضب أبيهم أو أمهم... نعم لقد كانوا يهربون إلى حضنها ويرتمون فيه.. ويأنسون بضمة جدتهم لهم..

❊ ❊ ❊

تصرمت الأيام... انطوت صفحات السنين.. وكبرت الجدة.. قوتها ضعفت.. وقلت حيلتها..، أهداها الزمن عكازاً تعتمد عليه في المشي.. بعد أن اشترى منها نظارة وجهها.. وحيوية كلامها بل وعذوبة صوتها..

❊ ❊ ❊

نهاية المطاف.. كان صوتاً مخيفاً.. صدر من غرفتها.. كأنه صوت سقطة إنسان على الأرض.. نعم لقد سقطت بعد أن غابت عن الوعي.. نصف جسمها تعطل والتف وجهها إلى ذات الجنب.. وأفاقت.. على سرير أبيض.. في أحد أروقة المستشفى..

بعد أيام من تمريضها.. صار ما تحتاجه.. مجرد عناية منزليه، إطعام.. سقيا.. تقليب حتى لا تتضرر جلدتها و... أمور أخرى.. كان الحديث موجهاً لابنها... رفيقها

في القصة منذ قرابة أربعين سنة. . . كان المشهد حاسمًا. . الطبيب يعرض الأمر على الابـن. . . الأم المسكينة تسمع وترى. . وهو لا يشعر. . أطرق الابن متأملاً في طلب نقلها إلى المنزل. . وبعد هنية. . أجاب. . يا دكتور. . . منظرها بهذا الشكل يُروع أطفالي وأرجو أن تتولوا رعايتها لديكم. .

❊ ❊ ❊

قد كانت كلماته صاعقة دوت في الغرفة أخرست كل لسان. وخلفّت وراءهـا صمتاً رهيباً شمل الطبيب المذهـول. . لـم يدم الصمت طويلا فقد بعثره صوت أنَّة انبعثت من جانب السرير الأبيض ترجمت معانيها دمعتان حارتان هطلتا على وجنتي بطلة القصة. .

أدار الابن ظهره للمستشفى. . . بمن فيه. . . وولى. .

لما توفيت أم عبد الله بن المبارك - رحمه الله - وهو من أئمة التابعين حَزِنَ حُزناً شديداً على فراقهـا. . وحـين عاتبه بعضُ أصحابه، قال: {والله إني لا أبكي جزعا من موتها. . لكنها كانت بابا مفتوحا إلى الجنة والآن وقد ماتت. . أُغلق هذا الباب. .}.

❊ ❊ ❊

القصة (٨) هل تتجزأ الحياة؟

هل تتجزأ الحياة؟

اتصل بي أحد أصحابي يستشيرني في شأن ابن عمه مصاب بورم سرطاني في عظْم الساق[1] على مقربة من الركبة . . أخبره الأطباء أن لا جدوى من العلاج فقد انتشرت بعض الخلايا السرطانية في أجزاء من جسمه، وبتر رجله من فوق الركبة هو الحل لتخفيف آلامه . . .

عاد المريض لتوه من أمريكا بنفس الانطباع وبنفس النصيحة التي تلقاها من أطباء مستشفى الملك فيصل التخصصي بالرياض . . حالته النفسية مرهقة ويعيش حيرة قاسية، هل يوافق على بتر رجله أم لا . . ؟؟

هذه القصة باختصار، وأراد مني صاحبي زيارة ابن عمه وإبداء المشورة . . شعرت بصعوبة المهمة، فما عساي أن أقول، وما عساه أن يُجدي قولي . . لكن لابد من الاستجابة لطلب صاحبي . . .

---

(١) أورام العظام السرطانية قليلة الحدوث، وغالباً ما تظهر في العقد الثاني من العمر - متزامنة مع شدة نمو العظام واستطالتها - وهي لدى الذكور أكثر من الإناث - وابرز أعراضها الألم الموضعي المبرح وتورم المكان . يمكن علاجها بالاستئصال والأدوية الكيميائية في حال كونها محدودة (غير منتشرة) أما إذا انتشرت فإن علاجها يصعب ونسبة الوفاة عالية جداً - أسأل الله العافية للجميع .

* * *

استأذنت في الدخول عليه في منزل والده وأنا لا أدري من أكون!! . . طبيب مُعالج أم صديق زائر، ولا أدري ماذا يريدني هو أن أكون . . هل يريدني طبيب يجيب على سؤاله المُحيْر، أم يُريدني صديق يواسيه في مُصابه وكفى . . ابتلّت يداي بالعرق وتسارعت نبضات قلبي وأنا أدخل عليه الغرفة . .

* * *

شابٌ في السابعة عشرة من عمره، في عُمر زهرة بيضاء تدلّتْ من على غُصن أخضر . . إلاّ أنَّ همّ المرض قد حجب نور الزهرة، ويبس الغصن من لأوى الأوجاع، سلّمت عليه فرد التحية بأحسن منها . .

تأملت وجهه وقد ألْبسه المرض خماراً قاتماً نُسِجت خيوطه الرمادية من الهم والألـم معاً . . فقررّت أن يكون حديثي لتخفيف الألم وبعثرة الهم ما استطعت . . إلا أن بريق أسنانه داخل ابتسامة هادئة أزاح شيئاً من ذلك النسيج .

امتدت يده النحيلة إلى جانب وسادته . . فالتقطت أنامله المرتجفة التقرير الطبي الذي تسلمه من مستشفى الملك فيصل التخصصي وصادقته رحلة الشاب إلى أمريكا . . ورم سرطاني في أعلى الساق اليسرى، وبثور سرطانية منتشرة في الرئتين،

العلاج (الكيماوي) لن يجدي وبتر القدم من فوق الركبة هو لتخفيف الألم وتقليل انتشار الخلايا السرطانية . . يتناول حالياً أدوية مهدئه وبانتظار قرار الموافقة على البتر . . تلك كانت خلاصة التقرير . .

كانت آلام قدمه مبرحة تسكن مع تناول المهدئات . . ويكسر حاجز الصمت في غرفته صوت سعاله الذي خالطه الدم نتيجة البؤر السرطانية بالرئتين . .

أنا لست متخصصاً في الأورام إلا أنني أعرف جيداً أن النوع الذي أصابه شديد السرطانية وفي حال انتشاره خارج العظم فإن احتمال الوفاة قريب جداً، لا يتجاوز بضعة أشهر . . والأعمار بيد الله . .

❊ ❊ ❊

فرغت من قراءة التقرير فأطرقت ساهماً خجلاً من سؤاله المتوقع، ما رأيك يا دكتور . . ؟ هل أوافق على بتر قدمي . . ؟ وهل سيفيدني ذلك . . ؟!

فعلاً . . صوته الهاديء في أذني وهو يسألني كان هديراً صاخباً في كياني . . رفعت رأسي وعيناي تتوارى استحياءً من عينيه، وبعد صمت لم يدم طويلاً، سألته

ما رأيك أنت . . ؟!

لا أدري . . المستشفى يستعجلونني في اتخاذ القرار سلباً أو إيجابا وأنا محتار ،

ولم الحيرة . . ؟

آلامي تؤرقني . . والبتر لن يستأصل المرض . . لا أدري ما مصيري . . ؟!

قالها وهو يمسك بموضع الورم، وبدأت كلماته تتعثر وهو يرمق قدمه اليسرى كأنما يخشى من فراقها، عندها أدركت مكامن الحيرة والقلق في نفسه، مفارقة جزء من جسمه والعيش بدونه، و . . مصير المرض . . الأجل القريب، همّان يكفي الواحد منهما لأن يُهدهد جبلاً، فضلاً عن شاب في الريعان . . .

❊ ❊ ❊

لقد سمّى الله الموت مصيبة ﴿فأصابتكم مصيبة الموت﴾ [المائدة: ١٠٦] . . وسماه الرسول صلى الله عليه وسلم هادم اللذات «أكثروا من ذكر هادم اللذات . .» وشعور الإنسان شعوراً حقيقياً بقرب الموت قرباً حسياً بسبب المرض مثلاً - يخلّف هما يجثم على القلب فيصير صاحبه غريباً عن الناس وهو في وسطهم . . سارح البال، ساهم الوجه، نظراته لمن حوله نظرات وداع، يستغرب ضحكات الناس من حوله،

ويفقد الرغبة في العمل والإنتاج وكأنه يقول.. من أجل ماذا؟، يزهد في سماع الأخبار ومتابعة الجديد، وفي حال ضعف الدعم النفسي الداخلي (اليقين بالله) والخارجي (العوامل المؤثرة حول المريض من أشخاص وغيرهم) فإن المريض يحبس نفسه في زنزانة الهم واليأس، فينقطع تماماً عن العالم المحيط ويفقد بوارق الأمل والاستبشار فتتفاقم آلامه العضوية والنفسية على حد سواء ويسجل نفسه في قائمة المرضى النفسانيين مع مرضه الأصلي.. وهنا يأتي دور الدعم النفسي في إنقاذ روح المريض...

بتر عضو من أعضاء المريض، بالذات إن كان ظاهراً وأساسياً كالقدم مثلاً، هو رزية بحد ذاته، إنّ حياة الإنسان هي روح تدب في كل خلية من جسمه وقطرة من دمه، يشعر الإنسان حين يفقد شيئاً من جسمه وكأنه فقد شيئاً من حياته وعندها يتساءل.. (هل تتجزأ الحياة به فيموت فيه جزء ويبقى حياً في أجزاء؟!).

المرء حين يفقد عضواً ظاهراً في جسمه فكأنه أمٌّ فقدت أحد فلذات كبدها، ولك أن تتخيل الموقف...

استجمعت قواي تمتمت سائلاً الله الإعانة وبدأنا الحديث

من جديد.

الحمد لله على كل حال.. عظم الأجر من عظم البلاء.. أصحاب البلاء والمحن إذا رأوا مالهم من أجر يوم القيامة، تمنوا لو أنهم قُرضوا بالمقاريض، وأنت صابر ومحتسب فأبشر...

الحمد لله على ما كتب..

تابعت حديثي.. هل تدري كم نسبة وفيات الشباب الأصحاء من الحوادث؟! إنها تزيد على وفيات كبار السن ومرضى الأورام مجتمعة.. إننا في زمن لم يعد يفرق فيه الموت بين صغير وكبير، مريض وصحيح إن فرصتك في الحياة أكبر من فرصة شاب مثلك يستقل سيارته في كل يوم مرتين أو أكثر، ليس مرضك بالذي جعلك ميتاً وغيرك في عداد الأحياء ثق تماماً أن الكثير من الشباب يموتون كل يوم، لم يحسبوا حساب الموت ولم يتوقعوه، صدقني أنك لست أقرب منهم للموت.. إن أمامك الكثير والكثير لتعيشه وبقي معك الكثير لتنتجه، ثم إن الموت ليس نهاية المطاف !! أتدري أن أناساً يتمنون الموت، بسبب ما يعانون جسمياً أو نفسياً ويعتبرونه دواء لهم، أتدري أن الموت هو راحة المؤمن يرتاح به من كبد الدنيا وعناءها وينتقل به إلى سعادة الآخرة ونعيمها، أنت مؤمن والمؤمن الصادق ليس بينه وبين الجنة إلا أن يموت.. أما سمعت حديث النبي صلى الله عليه وسلم : «.. الدنيا

سجن المؤمن وجنة الكافر . . » . . لكم تمنى المؤمنون لقاء الله فأحب الله لقاءهم، أنت وأمثالك من المؤمنين لا يجزعون من الموت، بل يرونه طريقهم إلى السعادة، والذين يعيشون طويلاً أتراهم مخلدون؟! فما الفرق إذاً أن تكون النهاية بعد سنة أو عشرين سنة، المؤمن القوي يعطي ويبذل حتى في أحلك الظروف وأصعب المواقف وهذا من بركة وقته وهي مقياس عمره الحقيقي، إن حقيقة أعمارنا هي ما أنتجناه فيها من خير لا ما أكلناه فيها من سنوات، صدقني أنه ليس لمرضك حساب في عمرك . .

تشجعت على المضي قُدماً في الحديث وقد لاحظت ارتياحه، وانبساط تعابير وجهه، وقد اتكأ على وسادته يتنفس بعمق . . ،

أنت في أوج قوتك وعطائك، غيرك يستشيرك قبل أن تستشير أحداً . .

أنت الذي تقرر . . هل تبتر قدمك أم لا؟! لقد عرفت المعادلة، البتر لتخفيف الآلام ولكنه لن يستأصل المرض بعد أن انتشر، دعني أسألك وأجبني بصراحة . . هل تفضل بتر قدمك أم بقاءها مع الآلام واستخدام المسكنات؟

بصراحة لا أريد بتر قدمي، بإمكاني أن أتحمل الألم،

والأدوية المهدئة تساعدني . .

أوافقك، وأهنئك على شجاعتك، وأضع يدي في يدك . .

لقد رأيت . . أن الآم الورم أهون عليه من الآم فراق قدمه فوافقته على اختياره، وشجعته عليه . .

وقفت أودعه فكانت ابتسامته المشرقة وعداً قطعه على نفسه بأن يخرج من الزنزانة . . ، لينطلق بروحه في العالم الفسيح وقد أقعد المرض جسمه، إنها الجنة حينما تكون في الصدر والبستان عندما ينبع في النفس فلا تعبأ بعدها بمصاب الأعضاء وحبس الأبدان . .

خرجت من الغرفة وأنا أسأل الله له الثبات وحسن الخاتمة . .

رحمه الله . . توفي بعدها بثلاثة أشهر . . .

❊ ❊ ❊

الفهرس

العنوان	رقم الصفحة
إهـــداء	٤
المقدمة	٥
١- عندما ييأس اليأس	٧
٢- موسى الرحمة	٢١
٣- حينما نختار الموت	٣١
٤- بل .. أصبر	٤٣
٥- التحدي	٥٥
٦- العنود ضحية من؟!	٦٥
٧- محـــروم	٧٣
٨- هل تتجزأ الحياة	٨١
الفهرس	٩١